قال : ذكرت هذا لأوجه نفوس العلماء والوجهاء إلى تلافي هذا الخطب ومداواة هذه العلة التي هي أم العلل وذلك بإنشاء مدرسة لتخريج المعلمين ولا بد في هذا من سعي العلماء ومساعدة الأغنياء . ثم شكر للحاضرين سعيهم فانصرفوا شاكرين . أقول كتبت بعد أيام من الاحتفال في إثر انحراف في الصحة فان نقصت من فوائد الخطاب ففي غير الفوائد الأصلية وان زدت فربما كان كلة في معنى الكلام تزيد في ايضاحه

﴿ باب الأخبار والآراء ﴾

(تتمة سيرة الكواكبي)

وكان أول عمل عمله في إدارة مجلس البلدية هو قطع عرق الرشوة من العمال الذين يباشرون الأعمال والمصالح ويسمون (الجاويشية) ولكنه زاد في راتبهم لعلمه بأن الذي يضطر أكثر العمال إلى الرشوة هو قلة الراتب . وكان من ظلم الوالي بعد عزل الفقيد من رياسة البلدية ان أرجع راتب الجاويشية كما كان وألزم صاحب الترجمة بدفع ما كان زاده لهم في مدته إلى صندوق البلدية كما ألزمه بدفع ما أنفق على سلاسل الحديد التي منع بها الجمال من طرق النسمة لأن الوالي أمر بإزالتها عقيب عزله ثم عاد فأمر بإعادتها بعد زمن قريب ولكنه لم يعد إلى الفقيد العرابة التي ظلمه بها

ولما عين رئيساً لكتاب المحكمة الشرعية كانت المحكمة في أسوإ الأحوال في الصورة والمعنى فكان ينفق على إصلاحها من جيبه حتى انه استحضر لها السجوف والاستار من بيته ومنع اختلاط النساء بالرجال إذ جعل لكل مكانا ينتظر فيه دوره للتقاضي ورتب الأوقات ونظم الدفاتر . . .

وكان صاحب عزيمة قوية لا يهاب حاكما ولا يخاف ظالما وعزيمته هي التي جنت عليه فقد كان نجح في عمله عند ما عين مديراً ومفتشاً لمصلحة حصر الدخان كما تقدم في السيرة الرسمية حتى وقع النزاع بينه وبين عارف باشا والي حلب يومئذ فبطل العمل عمل الفقيد في ضبط هذه المصلحة ما عجزت عنه إدارتها العمومية والحكومة جميعاً حتى كانت تخسر في ولاية حلب دون سائر بلاد الدولة . وكان المشتغلون بتهريب الدخان البلدي وبيعه في حلب سبعمائة رجل فعين لهم رواتب شهرية ومنعهم من التهريب بحكمة عجيبة . وسيأتي مجمل خبره في عداد الوالي عند الكلام على بعض العمومات التي نفيها في طريقه

كانت مدة الاتفاق الأول مع مصلحة حصر الدخان ثلاث سنين فانفصل من إدارة العمل والتفتيش بعد سنتين بالسبب الذي ألمعنا إليه ولثقة الفقيد بنفسه واقتداره على العمل ذهب إلى الاستانة بعد عزل عارف باشا من ولاية حلب فعقد اتفاقاً آخر مع المصلحة والحكومة مدته عشر سنين وكان أراد أن يضم إلى ولاية حلب ومتصرفية الزور ولايتي بيروت وسورية فلم يرض له ذلك من استشاره من الأقربين فرجع عنه . وقد نجح أيضاً في المرة الثانية ولكن حدثت بعد أربع سنين الفتنة الأرمنية فنهب الأرمن الدخان من عدة بلاد وقتلوا موظفي المصلحة فكان الفقيد يخسر في الشهر بضعة عشر ألفاً من الليرات فتوسل بذلك إلى الاستانة بحل العقد وإبطال الإتفاق فتم له ذلك بعد عناء وخسارة عظيمة

ولإخلاصه بحب المصلحة العامة كانت أكثر وظائفه فخرية أي بغير راتب كما عرف من الترجمة الرسمية وزيد على هذا أنه كان يبذل شيئاً من ماله فوق ما يأخذه من راتب بعض الوظائف لأجل ترقية العمل وإتقانه وهذا خلق لم يعرفه الشرق في هذا العصر

مشروعاته : طلب من الحكومة عدة امتيازات بأعمال عظيمة لم تكن تخطر لأهل بلاده على بال . (منها) إنشاء مرفأ في السويدية وطريق حديدي منها إلى حلب . و (منها) جلب نهر الساجور إلى حلب لأن ماء المدينة قليل ولو تم هذا العمل لأحيت به أرض واسعة فكانت جنات وحدائق . (ومنها) أن عينا خوارة في سفح جبل بين أرماز وأدلب قد أغرقت أمواهها تلك الأرض فجعلتها مستنقعات تضر الناس ولا يأوي إلى غابتها إلا الخنزير البري فذهب الفقيد إليها واختبر حال الأرض والعين اختباراً هندسياً زراعياً فعلم أنه يمكن جر مائها إلى أدلب القليلة الماء وتجفيف تلك المستنقعات فتصير نافعة وتحيا أرض أدلب ويحيا أهلها فطلب بذلك امتيازاً .

و (منها) إنارة حلب وبيرجك ومرعش واورفه بالكهربائية بواسطة شلال يحدثه من نهر العاصي في محل اسمه المضيق بالقرب من دركوش تابع لجسر الشغر وكان اختبر المكان اختباراً هندسيا فعلم أن أحداث الشلال فيه ممكن . (ومنها) استخراج معدن نحاس من أرغنه التابعة لولاية حلب . وقد حال دون إعطاء بعض هذه الامتيازات ما يحول دون كل مصلحة عامة يطلبها الوطنيون كالرشوة ونحوها . وقد كان أعطي امتياز استخراج النحاس واشتغل به ثلاث سنين ونيف وبعد ذلك أرادت حكومة الولاية إبطاله لأمر ما فادخلت مع الفقيد في العمل بعض الأجانب وتوسلت بذلك إلى إبطاله

خدمته للناس وللحكومة : كان اتخذ له مكاناً بين داره ودار الحكومة سماه المركز

يأوون إليه وكلاء الدعاوى البارعون فكان يؤمه أصحاب الحاجات والقضايا يستشيرون صاحب الترجمة فى حل عقد المشكلات ، ويستضيئون برأيه فى دياجير المهمات ، وكان فى الغالب يفصل بينهم بالتراضى ، ويغنيهم عن المحاكمة والتقاضى ، فان احتيج فى قضية إلى الحكومة يندب لهامن يراه أهلا لها من الوكلاء المحامين وإن كانت عظيمة الشأن يندب نفسه ويحاكم المبطل حتى يحق الحق لصاحبه . وقد كان قصاد ذلك المركز يكادون يزيدون على قصاد دار الحكومة . وكانت الحكومة نفسها تستشيره فى الشئون الغامضة وتعتمد على رأيه

مقاومة الحكام له : ورث الفقيد عن سلفه السادة الأمراء علو الهمة وقوة العزيمة وعدم المبالاة بالأخطار فهو من سلالة السيد ابراهيم الصفوى الأردبيلى المهاجر إلى حلب وما حديث الصفويه فى الامارة بمجهول . بهذا كان رحمه الله تعالى لا يهاب الحكام ولا يداريهم مع أن حكومتهم فى الحقيقة استبدادية . وهذا هو الذى أحبط أعماله فى بلده وذهب بثروته . غاضب عارف باشا أحد ولاة حلب فأغرى بعض الناس بأن يكتب إلى الاستانه شاكياً من سيئات الوالى شارحاً لها فعلم الوالى بذلك فعمل مكيدة لحبس الفقيد وضبط أوراقه وزور عليه ورقة سماها (لائحة تسليم ولاية حلب إلى دولة أجنبية) وطلب محاكمته عليها وحكم القانون فى هذه الجريمة الاعدام وانكم غلطوا فى معاملته بالحبس وطلب الاستنطاق غلطاً قانونياً ما كان ليخفى على الفقيد فكتب إلى الاستانة كتابة مطولة يشهر فيها أن خروج حكومة الولاية عن حدود القانون هو من دلائل تحاملها عليه وتحريها ظلمه وطلب أن يحاكم فى ولاية أخرى فاجيب طلبه وحوكم فى بيروت فحكم ببراءته وما زال يتبع الوالى حتى عزل بعد عودته إلى حلب وكان هو أول من بشره بالعزل بواسطة ناعى الولاية ثم انه أخرجه من حلب باهانة عظيمة لأنه أو عز إلى اصناف الفقراء الذين كانوا يسمون الفقير أباهم لنصبه إياهم فاجتمعوا عند داره بهيئات غريبة فترك أهله وخرج كالهارب وسافر إلى الاستانة وتبعه الفقيد ليحاكمه ولكنه لم يكد يصل اليها حتى مات قهراً

وكان الشيخ أبو الهدى أفندى الشهير من أعدائه ويقال أن السبب الأول فى ذلك إباء الفقيد أن يصدق على نسب الشيخ أبى الهدى هذا وان الشيخ أبا الهدى صار نقيب أشراف حلب وكانت هذه النقابه من قبل فى آل الكواكبى . ومن آداب الفقيد العالية أنه كان هنا يثنى على صفات الشيخ أبى الهدى الحسنة كالمروءة والكرم والذكاء والثبات وقلما كان يخوض بانتقاده إلا مع الخواص الذين يعرفون الحقائق فكانت عداوتهما عداوة العقلاء

خسر الفقيد بتلك المحاكمة ألوفا من الجنيهات وخسر أضعافها بادارة شركة انحصار الدخان للمرة الثانية أيضاً لأن الحكومة مكلفة بحفظ أماكن الشركة فلما حدثت فتنة الأرمن امتنع الوالي عن إرسال العساكر لمنع نهب الارمن مال الشركة. وخسر بعدم مدارة الحكام غير ذلك من المزارع والارض (منها) مزرعة (جفتلك) جميل باشا الوالي التي اشتراها منه الفقيد فاعتدى عليها زعماء التركمان باغراء خفي حتى أخذوها. (ومنها) مزرعة (جفتلك) كانت مستقطعات تابعة للاراضي الاميرية فألفها شركة وأخذها من الحكومة وحفظها فأغرى الفرون بعض عشائر الاكراد بالتعدي على حصته فحاكمهم فحكم لهم عليه بالمساعدة الخفية. وفي أثر ذلك سافر مهاجراً إلى مصر

سياسته ورأيه في الإصلاح: لم يكن الفقيد في اشتغاله بخدمة بيته وبلده وحكومته غافلا عن شئون المسلمين العامة فقد كان يقرأ الجرائد التركية والمصرية حتى الممنوعة التي كانت تدخل إلى حلب كغيرها بوسائط خفية. ولما هاجر إلى مصر كان أول أثر له فيها طبع سجل جمعية أم القرى وكان يقول ان لهذه الجمعية أصلا وأنه هو توسع في السجل ونفحه ست مرات آخرها عند طبعه منذ سنتين ونيف أي عقيب قدومه إلى مصر. وقد قال لنا مرة إن الإنسان يتجرأ أن يقول ويكتب في بلاد الحرية ما لا يتجرأ عليه في بلاد الاستبداد بل ان بلاد الحرية تولد في الذهن من الافكار والأراء مالا يتولد في غيرها. ومن يقرأ الكتاب يظن أن صاحبه صرف معظم عمره في البحث عن أحوال المسلمين وتاريخهم في عقائدهم وعلومهم وآدابهم وتقاليدهم وعاداتهم ومنه يعلم رأي الفقيد في الاصلاح وقد كنا معه على وفاق في أكثر مسائل الاصلاح حتى أن صاحب الدولة مختار باشا الغازي اتهمنا بتأليف الكتاب عندما اطلع عليه وربما نشير إلى المسائل التي خالفنا الفقيد فيها في هامش الكتاب عند طبعه وأهمها الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية.

أما آراؤه ومعارفه السياسية فحسبنا منها كتاب طبائع الاستبداد الذي يكاد يكون معجزة للكتاب السياسيين. وقد زعم زاعمون ان معظم ما في هذا الكتاب مقتبس من كتاب لفيلسوف ايطالي في الظلم. ومن كان له عقل يميز بين أحوال الإفرنج الاجتماعية وأحوالنا ودوقهم في العلم وذوقنا يعلم أن هذا الوضع وضع حكيم شرقي يقتبس علم الاجتماع والسياسة من حالة بلاده حتى كأنه يصورها تصويرا واذا لاحظ مع ذلك ان هذا الكتاب كان مقالات مختصرة نشرت في المؤيد ثم مدها صاحبها مد الأديم العكاظي وزادفيها فكانت كتاباً حافلا يتجلى له علمه الأول بصورة أوضح وأجلى

وإذا علم بعد هذا كله أنه نقحه بعد الطبع وحذف منه قليلا وزاد فيه كثيرا علم اليقين أن يذوع علم هذا الرجل صدره وأنه كان يزداد في كل يوم بضاعة وتفجرا . نعم إنه قال في مقدمته أن بعضه مما درسه من كتب من سبقه مما اقتبسه ، وأنا علم أن لم يولد إنسان عالما ولكن فرقا عظيما بين من يحكي كلام كثيرين كما فعل (النويري) وبين من يحكم عقله في علوم الناس فيأخذ ما صح عنده ويبعد ما لا يصح . ومن كان له مثل هذا العقل الحاكم في كليات العلوم فهو الفيلسوف ان كان اجتهاده هذا في العلوم العقلية والكونية وهو الامام ان كان اجتهاده في العلوم الدينية

وجهه الاول : وجه همته أخيرا إلى التوسع في معرفة حال المسيحيين ليتمكن في الاصلاح على بصيرة فبعد اختباره التام لبلاد الدولة العلية تركها وعزم على أن يختبر بلاد العرب التي كانت توسع أذهان أهم الاخبار فانه دخلها من سواحل المحيط الهندي وما زال يتوغل فيها حتى بلغ في بلاد اليمن واجتمع بالامراء وشيوخ القبائل وعرف استعدادهم الحربي والأدبي وعرف حالة البلاد الزراعية وعرف كثيرا من معادنها حتى انه اكتشف بعضها . وقد اشار في رسالته الاخيرة إلى كراس لا أعلم ما هو . ثم سافر إلى حضرموت ومنها إلى عدن حيث كان يقيم نائب جلالة الملكة فكتب له توصية من وكيل نظارة الخارجية البريطانية السياسي في مستعمرة عدن يطلب فيها من سواحل بلاد العرب وسواحل افريقيا الشرقية فتيسر له بذلك اختبار هذه البلاد اختبارا سبق به الاقران . وقال في نفسه رحلة أتأسى بها أحد الرحالين الذين مروا بهذه الاماكن ولم يتمكنوا من دخول الداخلية التي يحول دون كل منهم موانعه

رأيت رجلا كريم الاصل ، كبير النفس ، قوي العزيمة ، واسع الاطلاع ، يعلم أحسن ما يعلم ويدخل في الأعمال الخطيرة ويتصدى للمشروعات العديدة كتب في أدق المسائل أحسن الكتابة وباح في البلاد واختبر أحوال الامم حتى بلغ أشده واستوى كيف يكون حاله وما هي درجة استعداده ؟ ؟ هذا هو صديقنا الذي فقدناه بالامس فكلنا فقدنا به الشمس ومثل تلك الاعمال الكبيرة لا تبلغ إلا بعد سنين طويلة أو بمساعدات أو بجمعيات وقد كان له أمل في مصر وأمرها أراد الاختبار لانه رأى كان لموته تأثير كبير في الفضلاء والعقلاء وقد نعى بن الجناب الحديوي في برقيته له الوه ما تولاه بما يأمر بأن يدفن على نفقة سموه وأن يحمل بدفنه فكان ذلك . فرحم الله فقيدنا وأحسن عزاء الاسلام والشرق فيه